الفصل العشرون

الخرائط الذهنية والجغرافية

بشيء من الذكاء والصبر نتحسس وندرك العالم الغريب والعجيب المحيط بنا. نتزود بالمعلومات عن هذا العالم بطرق شتى، نختار منها، نتذكر، ننسى، نركب من بعضها شيئاً، نفسر، نقيم ونستخدم لتحديد مسارنا عبر الموجات المتلاطمة في بحر الحياة، المقاومةلنا في بعض الأحيان.

إن صورة الإبحار عبر بحر الحياة الهاديء-المضطرب يمكن النظر اليها من زوايا مختلفة. فقد نجد أنفسنا أمام مشكلة صعبة أو موقف يتطلب إتخاذ قرار جريء، وأحيانا نحس بميل إلى هذا أو ذاك، نتبع قطارا من الأفكار قد يقودنا إلى نهايات غير مقبولة ونعود في النهاية إلى نقطة البداية لنأخذ مساراً آخر ونركب زروقا من جديد!! إن الصراع مع المصاعب، ومحاولة إيجاد طريق النجاة خبرة يعيشها الجميع، فمن وقت لآخر نواجه مشكلة البحث عن الطريق. فأي مسالك التزلج عبر الغابة العميقة نسلك للعودة إلى القرية؟ أي الشوارع يوصل إلى Quincampoix قرب Beauborg؟ هل يؤدي هذا الطريق إلى الشارع رقم (٥٤) أم إنه في الأتجاه المعاكس؟ أستطيع تمييز شيء.. أليس كذلك؟.

ليس سهلاً إستخلاص شيء ما من المعلومات المتوفرة وتمييز العلامات البارزة فيها حتى وإن إمتلكنا موهبة الذكاء والإحساس العام وقابلية جيدة في الثبات والصبر وذلك لإن الصورة الذهنية للأشياء قد لا تكون منسجمة مع الحقيقة. ولا نريد هنا مناقشة فلسفية لما يقصد بالحقيقة، ولكن، يبدو أن معظم الناس تدرك عوالمها لمعظم الوقت ويجدون طرقهم ليس في المهام الروتينية اليومية فحسب (للتسوق-التبضع) بل وللإنتقال إلى الأماكن الأخرى بعيدة المسافة. مع هذا، فهناك العديد من الذين يجدون صعوبة للحصول على شيء ذي معنى في هذا العالم، أناس لا تتطابق خرائطهم الذهنية مع الواقع. إنهم معوقين بدرجة كبيرة مقارنة مع المواقف الأساسية عند الأخرين. وقد يحدث العوق نتيجة حادث كبير أو الإصابة بمرض

ينقص القابلية يضعف قابلية التحسس والتوجه لمعرفة الطريق عند المصاب ويجعله محتاجا إلى مساعدة ملاحية كي يصل إلى الهدف.

إن فكرة الخارطة الذهنية، الصورة الإدراكية للبيئة، عميقة في الأهتمام الجغرافي خاصة عند محاولة فهم الكيفية التي تتصرف بها المخلوقات البشرية في الحيز المحيط بها. وكان الجغرافي Reginald Golledge في مقدمة المعنيين في هذا الموضوع. لقد إشترك مع زملاء له في علم النفس والصحة العقلية، وكان مهتما بالعوق العقلي والمصاعب التي يعاني منها المعوقون في العيش في عوالمهم الخاصة بهم. ومن المشتركين في هذا المسعى Julian Wolpert . لقد تغير الموقف تجاه المعوقين والمتخلفين عقليا كثيرا هذه الأيام، وتزايد التحسس بحقوقهم في العيش في المجتمع وزيادة مستويات الحنان والشفقة والتعليم الإنساني.

إهتم ولبرت، وتعاونت معه زوجته Eileen وزملاء آخرون بدراسة المشاكل الناجمة عن إنتزاع إشخاص من مؤسسات ينتمون اليها دون توفير دعم إجتماعي مناسب ووضعهم في مجتمعات خاصة في منازل وفنادق قريبة من مراكز المدن الأمريكية. وقد تعاملوا مع الموضوع بطرق متباينة، وتراوحت بين وصف الحالات المفردة وإستجابات المجتمع تجاه المتخلفين عقليا إلى التحليل الرياضي العالي للتوزيع الأمثل للمصادر النادرة.

يرد سؤال للذهن، هل بإمكان المعوق عقليا معرفة طريقه في البيئة الحضرية؟ بدون هذه الخبرة تصبح حتى المهمات اليومية البسيطة مستحيلة، في مدينة سانتا باربرا في ولاية كاليفورنيا، على سبيل المثال، قارنGolledge مقدرة الناس الأعتياديين في تمييز العلامات الأرضية Landmarks «مبان، حدائق، علامات متميزة، ...» والإبحار في هذا التيه Maze مع مقدرة أناس معوقين عقليا بدرجات متباينة. وفي دراسة عن مدينة كولومبوس في ولاية أوهايو، تمتع بعض المعوقين بقابلية عالية في تمييز العلامات الأرضية، ووقع البعض في أخطاء أكثر مما يقع بها الأنسان الأعتيادي ولكنهم لا زالوا قادرين على أداء المهام اليومية الأساسية بشيء من الرضا والقناعة، وبقي مسكين واحد بخارطة ذهنية مشوشة تمثل تجميعا للأشياء بدون صلة رابطة بينها فلم يكن لتركيبة الحيز الجغرافي معنى عنده.

سواء أكان الشخص معوقا عقليا أم لا، فنحن جميعا نمتلك تصورات عن الأماكن التي تحيط بنا. والأهم من هذا، لنا تقيمنا الذاتي لها، نحبها أم لا. لذا، فللأماكن معان مختلفة، ويوثر هذا على تقيمنا للمسافة، كذلك له تأثيره غير المقصود على تصورنا للأماكن.

خلال حرب فيتنام، مال طلبة الجامعات الأمريكية الى زيادة تقديراتهم للمسافة الى هانوي، وقللوا منها الى سايكون وكأنهم يسحبون إوربا نحوهم ويبعدون إفريقيا بعيداً. وبعد عقد من الزمان، اختلف الطلبة الهولنديين في أمستردام في قياس المسافات على خارطة أوربا وكأنها قد رسمت على ورق مطاط يتمدد حيث يريدون ويتقلص عندما يرغبون. فالمسافة بين أمستردام وباريس أو برلين قدرت بصورة قريبة من الواقع، ولكن المسافة مع المدن شرق الستار الحديدي قد زيدت كثيراً، عدا مدينة اسطنبول التي كانت قريبة منهم. وتبدو اثينا قريبة جداً اليهم، ولعلها بالحقيقة كذلك. ما هي الحقيقة؟ فالعالم الاغريقي له مكانته الخاصة في المخيلة الغربية، ولربما في الحقيق أيضاً، ولكن ليس بالحيز الجغرافي التقليدي. إن هذه التباينات في تقدير المسافات ثابتة سنة بعد أخرى، ولدينا الكثير من البراهين تثبت بأن الصورة الذهنية لمجاميع الناس المتشابهين تميل الى الاستقرار بدرجة كبيرة.

نستنتج من هذا، أن الحيز على جانبي الستار الحديدي يتمدد بالاتجاهين، وإن الاختلاف في الادراك الحسي للحيز الجغرافي كبير جداً، وقد يشكل حواجزاً، ولكن علينا أن نكون حذرين ولا نقفز الى نتيجة بسرعة.

في الحقيقة، إن السلاسل الجبلية الوعرة تقسم الشعوب تريخياً وتعزلهم من وادٍ عن آخر. ولكن ماذا عن بلد جبلي موحد مثل سويسرا؟ وتقوم المياه بتقسيم البلدان أيضاً، يعرف ذلك الانكليز والفرنسيون. وقد تقسم الانهار بين بلدين يكون شعبهما موحداً أصلاً. وحتى يومنا هذا، من السهل على مزارعي الكروم على سفوح جبال Vosges غرب فرنسا أن يفهموا (بكل معاني الكلمة) زملائهم في Kaiserstuh١ عبر نهر الراين في المانيا ويتصلوا معهم اكثر من الاتصال (بكل معاني الكلمة أيضاً) مع المسؤولين في باريس.

الى أية درجة ندفع بانكلترا باتجاه فرنسا، أو بالعكس، لتكون الاتصالات بينهما حقيقية؟ بالمقابل، إذا كان هناك اقليم موحد ثقافيا وحضارياً يمر عبره نهر وكان بالامكان جذب كل جانب من النهر بعيداً عن الآخر، فالى أية درجة تتحول الوحدة الى انفصال؟

بدرجة اقل خيالية تتسائل Gunnar Torqvist عن أثر الفاصل المائي عند دراسته منطقة Oresund حيث يفصل المضيق السويد عن الدنمارك، يفصل بين كوبنهاكن وهلسنكي في جانب ومالمو وهلسبورك في الجانب الآخر. يتراوح عرض المضيق بين ٣ - ١٥ كلم (أوسع من نهر الراين وأقل اتساعاً من القنال الانكليزي)، وقد كان الاقليم موحداً تاريخياً تحت التاج الدانمركي. بعد تحرير منطقة Skane في الجانب السويدي ضمت الى الارض

الأم في القرن السابع عشر (حسب رواية السويد)، أو عندما قطعت من الارض الام، طبقاً لما يقوله الدانمركيون. فهل بدأ الجانبان طريقهما بصورة منفصلة؟ واليوم الاتصالات بينهما قليلة جدا طالما تواجه كوبنكاكن الغرب والجنوب باتجاه الشمال الشرقي باتجاه ستوكهولم. تعكس هذه الحالة الاختلاف في النظر الى الاشياء والصور الذهنية وإدراك البيئة، وهذا أمرٌ طبيعي راجع الى تباين الخبرة وقنوات التزود بالمعلومات.

• ففي الجانب السويدي تكون الصورة الذهنية المدركة عند طلبة الثانويات في Lund موجهة نحو Skano، وقد استخدمت قيم رقمية عند اسقاط المعلومات على الخرائط، وكانت القيمة بين (٠-٣) تعني القليل من الاماكن المعروفة، والقيم حول (٥) تمثل شيئا من المعرفة، ولكن بشيء من المشاعدة، بينما كانت القيم العالية تعني معرفة اوسع وقضاء وقتاً هناك. وفي كوبنهاكن أجري اختبار آخر عن الجانب الثاني من المضيق، وكانت المعرفة مركزة عن الدانمرك من معرفة بسيطة لبعض المدن الساحلية في السويد. بامكان طلبة الجغرافيا القيام برحلتين سنوياً من كوبنهاكن الى لوند التي تبعد فقط (٣٥) كلم فقط.وعلى الرغم من أن اللغتين السويدية والدنماركية قريبتان من بعض، وبإمكانهما القراءة بسهولة للغتين، إلا أن المحادثات بين الطلبة كانت تتم باللغة الانكليزية.

لقد لوحظت تباينات كبيرة في الصور الذهنية عند مجموعات اخرى من الناس، كبار رجال الاعمال والمسؤولين عن اتخاذ القرارات. ووجد تشابها كبيرا في وجهات نظر كل مجموعة وتقيماتها للظروف الخاصة بالجانب الذي هي فيه. ولعل ذلك راجع الى امتلاكها ذات النوعية من التعليم، تقرأ ذات الصحف والمجلات، نستمع ونشاهد ذات برامج الاعلام، وتتعزز هذه الآراء من خلال اللقاءات والاتصالات المستمرة بين أعضاء المجموعة. إنها مسألة معلومات مرة أخرى. رجال الاعمال السويديون اكثر فاعلية، حسب قولهم، ويعارض ذلك الدانمركيون، فالعكس صحيح عندهم. رجال الاعمال السويديون مسيطر عليهم حسب رأي الدانمركيين، ولاعكس من ذلك يراه السويديون. وفقط عندما تذهب المجموعتان الى لقاءات على مستوى العالم والنظر الى اوربا برمتها حينها تكون النظرة موحدة تقريباً إن الصور الذهنية التي يحملها أناس ذوي قابلية للتأثير واتخاذ قرارات مهمة (توقيع مراكز العمل، تنظيم السيطرة على التلوث، جميع أنواع التخطيط)، وتكون لقرارتهم أهمية خاصة عند تعلق الامر باعادة تركيب اقليم معين. يعني هذا، وكما نعرف، إجراء تغييرات في شبكة الاتصالات والنقل. وقد وضع برنامج بحثي كبير عن الصور البيئية الذهنية لتغيرات المحتملة عند بناء جسر جديد أو حفر نفق يربط مالمو مع كوبنهاكن أو هلسنكي مع هلسبورك. فهل ستتصل

كويهاكن مالمو وتضعها تحت مضلة تأثيرها وسحبها من ستوكهولم؟ أم إن الزيادة في الصلات تقابها زيادة في الاتصالات وزيادة في المعلومات عن كلا الجانبين؟ وبهذا يتوحد الادراك الحسي للإقليم باكمله؟

من الصعب الاجابة عن هذه الاسئلة وذلك لأن المجاميع المتشابهة من الناس القريبة من بعضها في الحيز الجغرافي قد تكون معرضة الى تيارات مختلفة من المعلومات. وتترجم الملازمات بطرق ممختلفة كلياً لينتج عنها تقيمات وصور ذهنية متباينة جداً. ففي مونتريال حيث كيوبك الناطقة بالفرنسية تجاورها أونتاريو الناطقة بالانكليزية نجد أن الصور الذهنية عند طلبة الثانويات في المدينتين مختلفة كلياً رغم أن المسافة الفاصلة بينهما قليلة جداً. فالصحف والتفاز الفرنسي يزور عوائل كيوبك، ويفضل الطلبة العيش أما في مونتريال أو كيوبك. وبالنسبة للطلبة الناطقين باللغة الانكليزية فاتجاههم نحو أونتاريو، والغالبية نحو تورنتو. لدينا هنا توكيد جغرافي كامل عن التقسيم الحضاري واللغوي الذي اصبح الشغل الشاغل للكنديين.

إن الاحساس بـ(نحن) و(هم) غريب، مع هذا فهو موجود في جميع المجتمعات البشرية. في بعض الاحيان، نفكر في ماذا يمكن القيام به ليكون الناس في هذا العالم اكثر انفتاحاً وتحملاً واكثر احتراماً للآخرين المحيطين بهم.

وكما لاحظنا في الفصل (١٤)، فإن جنون العظمة لدى ضباط جيش فينزويلا تجاه جارتهم الصغيرة غيانا التي ليس لديها بحرية أو قوة جوية، بل فقط جيش صغير. ولكن هذا صحيحاً أم لا. فعلى سبيل المثال، حدد احد ضباط الجيش الغيني ستراتيجية الحيز في شرق إفريقيا وكأنه يعيش في عالم ليس فيه الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي أو الصين أو أوربا. يعتقد أن الدول الصديقة في اثيوبيا والسودان ويأتيه الخطر الكبير من الصومال. أليس غريباً تأثير المعلومات وصياغتها لأحاسيسنا ومواقفنا لتكون على شكل خوف من خطر معين أو صداقة، وتحديدها لما نحب وما نكره؟!

ليس ضباط الجيش وحدهم يحولون المعلومات الى أفضليات ايجابية وسلبية، فجميعنا نقوم بذلك ولكن بدرجات متباينة، وفي بعض الاحيان بدرجات مختلفة من الادراك الحسي للحيز الجغرافي لتحويله الى قرارات حقيقية، مثل جمع ما يلزم للإنتقال الى هناك، وهذا نسميه بالهجرة. في الولايات المتحدة، مثلاً، لجميع مجاميع الناس وفي مختلف المواقع (في هذه الحالة بنسلفانيا) مسطحات غير متوازنة من المعلومات، تكون القمم قريبة من

المناطق التي تعرفها جيداً للتناقص تدريجياً لتشكل وديان تمثل المناطق المهملة والمنسية. يمكن التوقع عن مواقع هذه التلال والوديان بدرجة كبيرة باعتماد نموذج الجاذبية البسيط. فامعلومات تتناقص بزيادة المسافة، وتزداد مع زيادة الحجم السكاني. فالناس هم صانعو جداول المعلومات ومغذوها.

وتجلب الاحداث البيئية الكبيرة مثل الفياضانات والهزات الارضية مناطق معينة الى الاسماع من وقت الى آخر. وتشكل هذه الاحداث "ضوضاء" على تيارات المعلومات "القوية والمستمرة.

إن سطح المعلومات الذي يمكن توقع تدرجاته بثقة عالية يستوجب التوقف عنده لأنه يعني بأننا جميعاً "سجناء" في الموقع التي نحن فيها. تعتمد المعلومات التي نمتلكها، وبدرجة كبيرة، على أين نحن. يدفعنا هذا الى التفكير بمواقعنا في الحيز الجغرافي والمجالات الاخرى (الديني، الحضاري، العرقي، اللغوي، .... وغيرها) وعلينا أن نفكر بعمق بالطريقة التي نحول بها هذه المعلومات الى افضليات شخصية. فعلى سبيل المثال، لدى الشباب اليافع في بنسلفانيا خرائط ذهنية أو سطح افضلية تقع قمته فوق كولورادو (لأنهم طلبة الجامعة هناك) وتمثل بنسلفانيا ثاني قمة على الخارطة. عموماً، هناك صور مشرقة في الساحل الغربي ،والشمال الغربي، وتتناقص في حوض يوتا والوسط الغربي. وتشكل تكساس قمة أخرى لتتدرج بحدة نحو المسسبي والباما ويتصاعد السطح مرة أخرى في كارولاينا والشمال الشرقي. إن تطابق الخارطة الذهنية مع سطح المعلومات غير متكامل، فهناك تطابق نسبي في بعض المرتفعات والمنخفضات. وفي بعض الولايات مثل كولورادو، اوريكن، فيرمونت، مين، واشنطن و نيوهامبشاير كانت الافضلية اعلى مما يتوقع من المعلومات، ولربما لأن هذه ولايات تضم صورها جبالاً وبحيرات وغابات و حياة برية غنية تجذب عشاق البيئة. وكان تقييم الولايات الاخرى مثل :- أو هايو، نيوجرسي، الينوي و ديلاور أقل مما يتوقع من المعلومات لأنها ولايات تضم صناعات قديمة وهوائها غير نقي. هل هي الصورة الذهنية صحيحة؟ لقد استوعبها جيل الشباب بهذه الصورة وهم ذوي مستوى تعليمي جيد وقابلية عالية على الحركة والانتقال والعديد منهم يمارس حق التصويت في الانتخابات وإنهم سيؤثرون على رياح التأثيرات (الفصل ١٣ و ١٧) ويوجهوها ضد النطاق الصناعي القديم لصالح المناطق ذات الصور البراقة الجديدة.

إن الصور الذهنية عن افضليات المناطق السكنية ليست ثابت كلياً. وخلال العشرين سنة الماضية حدثت تغيرات كبيرة في هذه الصور. فاذا نظرنا الى الفروقات بين خارطتين ذهنيتين، واحدة في الستينات والثانية في الثمانينات سنجد التسجيلات السلبية تغطي معظم الشمال الشرقي والوسط الغربي تقريباً، كذلك كل من فلوريدا وكاليفورنيا. تعد الاخيرة مكاناً جميلاً للزيارة فقط و ذلك لأن صورتها الذهنية المشرقة قد تلاشت. وتكون الزيادة الكبيرة لصالح كارولينا وجورجيا حيث التقنيات الحديثة.

جرت معظم بحوث الخرائط الذهنية من قبل جغرافيين قبل عشرين سنة، والآن فقط بدأت أفكارهم تنتشر في العالم. فقد بدأ البعض وببطء، يلاحظ أن الصور الذهنية التي يحملها الناس عن الاماكن هي الاكثر أهمية في صناعة القرارات، وإنها اكثر تأثيراً من أية معلومات احصائية علمية. ففي بعض النشاطات المهمة، السياحية مثلاً، تمثل الصورة الذهنية مركز النقل فالجداريات الملونة والنشرات والمجلات الساحية تنتج صوراً ذهنية عن الاماكن. توفر السياحة تدفقات مالية كبيرة، وتعتمد العديد من الاقاليم على هذا المورد بشكل كبير. في مثل هذه الحالات يكون السؤال (ماذا يعتقد عنا الآخرون). وقد رسمت خارطة لفرنسا تعبر عن الصور الذهنية لدى آلاف الناس عن الاقاليم، معبر عنها بقبول ورغبة أو عدمهما. وتعني العطلة الصيفية عن العديد من الناس قوة مركزية طاردة تدفع بالناس نحو الاطراف الى بريتاني، بيرني، جبال الالب وريف وشواطيء الآزور في الجنوب. ماذا عن المناطق التي تقع في الوسط؟ ليس هناك الكثير لأن ٧٠-٨٠٪ من الفرنسيين يعترف بأنه لا يعرف ماذا يوجد هناك. فالسياقة باتجاه النقاط الجاذبة في الخارطة الذهنية تكون في الغالب ليلاً تجنباً لإزدحام المرور وإبقاء النظر على الطريق دون التمتع بما يحيط به. لقد وصف الشاعر Belloc Hilair الطريق الى روما عبر جبال الفوج والجورا بأنه ساحر وأخاذ، ولكن بسبب الطائرات النفاثة والسيارات السريعة سجل هذا الاقليمم أقل قيمة جذب سياحية. مع هذه الخارطة الذهنية لفرنسا، للأغراض السكنية في فرنسا، فالصورة الذهنية تحول عادة الى مفردات وعوائد مالية.

كيف نعزز صورة الاقليم لنجذب زواراً اكثر؟ ولربما، الاكثر اهمية، هل نجذب مجاميع كبيرة من الناس لتخرب الريف بما تتركه من أزبال وفضلات سكان المدن؟ القلة تقاوم هذا الاغراء، ويقوم المسؤولون دائماً باضافة موادا تعزز الصور الذهنية. في الولايات المتحدة جرى تحليل تفصيلي للصور التي تقدمها وكالات السياحة عن كل ولاية. تقدم بعض الولايات صوراً عن التنوع الموجود فيها لتعبر بأنها تمتلك كل شيء، بينما ولايات أخرى تجلب

الانتباه الى اشياء قليلة لتجعل نفسها مختلفة عن الأخريات. في هذا المعنى كانت الاسكا، كاليفورنيا، فلوريدا، هاواي، نيومكسيكو ونيويورك. ولكن عندما تدفع (٥٠) ولاية بنفسها باتجاه واحد تحدث المشكلة، فكل منها تريد أن تتميز عن الاخريات، وقد نجح البعض في جذب سواحاً اكثر مما يتوقع. نعود الآن الى حساب المتوقع، الى نموذج الجاذبية خاصة و أننا نتحدث عن التفاعل المكاني والحركة خلال العطل بين الاماكن المختلفة. وقد يعبر هنا عن المسافة الفاصلة بالكلفة المادية أو الزمن، وهي جزء من المشكلة، وبالامكان وضع دليل عام عن نسب النجاح في عملية الجذب يعتمد على ما في الولاية من إمكانات ذاتية والعدد الحقيقي لزرارها من السياح. لم تحقق الولايات التالية كوامنها الذاتية جذباً للسياح: مين، كونيكوت، ميرلاند، فرجيني وغرب فرجينيا في الجانب الشرقي من الولايات المتحدة، والمسسبي، الباما في الجنوب ومونتانا و وايومنك وداكوتا في الشمال الغربي. لعل هذه الولايات لا تريد مزيداً من السياح؟ ولربما لديها ما يكفي من الزوار صيفاً؟ أم إن البيئة قد تشبعت وتحملت اكثر مما يجب؟ إن النجاحات هذه قليلة عند مقارنتها مع الذروة في كاليفورنيا، فلوريدا، تكساس حيث حققت هذه الولايات اكثر من طاقتها الكامنة الذاتية بجذب السياح.

إن موضوع التشبع السياحي ليس عادياً لأن المناطق البرية قد اصبحت اكثر هشاشة وضعفاً أمام المجاميع اللامسؤلة التي تزورها في العطل الاسبوعية والسنوية.

إنهم نادراً ما يكونون متحمسين مسؤلياتهم تجاه أكوام الفضلات التي يخلفونها ورائهم وبدون احترام للآخرين. يمكن الحفاظ على جيوب قليلة للهدوء والسلام إذا طورنا الاحساس بالمسؤولية تجاهه والرعاية الرقيقة للعالم الذي يمثل ارثاً لنا جميعاً.